المجلة العربية، جامعة داكا
المجلد السادس عشر، يونيو ٢٠١٨ م

خصائص البلاغة النبوية: دراسة فنية على ضوء الأحاديث النبوية

محمد ناصر الدين *

Abstract

Al- Hadith is the second source of Islamic epistemology. Due to this importance it is being studied multi-dimensionally to reach an integrated understanding of Islam. Accordingly the rhetoric excellence of Hadith literature is one the most appreciated branches that has drawn a considerable attention from Islamic scholars of past and recent times. This article is an endeavor to focus briefly on some of the notable characteristics of eloquence in the sayings of Prophet Mohammad (P.B.H) such as brevity, tenderness to meet the meaning, vividness, eloquent narrative and proverbial approach.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، محمد بن عبد الله إمام البلغاء وسيد الفصحاء الذي أوتي جوامع الكلم وجواهر الحكم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين من الأمم.

أما بعد.

فقد كانت للكلام لدى العرب في العصر الجاهلي قوة نافذة، حتى أصبح الشاعر رمزا لعزّ القبيلة وكرامتها، فكانوا لا يهنئون إلا بثلاث: غلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج. فعندما جاء الإسلام بكتابه المعجز، ونبيه صلى الله عليه وسلم بخطابه المبدع أصابتهم دهشة وذهول، فعجزوا عن قبول التحدى فلم يسعهم إلا مواجهة المسلمين بالحرب والسيف. فالقرآن الكريم قد غير كل شيء في حياتهم رأسا على عقب، حتى أصبح

* محاضر، قسم الفقه، الجامعة الإسلامية، كوشتيا

المؤثر الأول في حياتهم الفكرية، والأدبية، ثم يأتي بعده أثر شخص الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم، فقد منحه الله عزّوجلّ جوامع الكلم وجواهر الحكم.

شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ومهمة البلاغ

إن الله عزوجل خلق الإنسان أمما، وجعل لكل أمة لسانا، ومن مقتضى حكمته سبحانه وتعالى أن أرسل كل رسول بلسان قومه، حتى يؤدي المهمة التي أرسل لأجلها بشكل لائق ومطلوب، وهذه المهمة تتمثل في قيامهم بالبلاغ المبين، "... وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"[3]، وبالبيان والتبيين، "... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"[4]، وبالتلاوة والتزكية والتعليم، "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ..."[5]، وما إلى ذلك من الأمور التي لا بد لحسن قيامهم بها من فصاحة اللسان، وحسن البيان، وقدرة كافية على الإبلاغ، والإيضاح والإفهام. ومن ثمّ كان اختيار الله عزوجل أنبياءه ـ عليهم السلام ـ من أفصح أقوامهم لسانا، وأحسنهم إبانة وبيانا، ليكونوا قادرين بشكل مرجو على تبليغ الرسالة الملقاة على عواتقهم شرحا وبيانا، إلى أتباعهم الراغبين، وعلى الجدال الحسن، وحسن المناظرات التي لابد من وقوعها بينهم وبين الرافضين والمعاندين من أقوامهم.

فالقوة البيانية والإبلاغية بالنسبة للرسول المبلّغ أمرَ الله تعالى صفة في غاية من الأهمية، فلذا نرى موسى ـ عليه السلام ـ يناجي ربه لحل عقدة كانت في لسانه، ويطلب منه إشراك أخيه هارون في أمره؛ لأنه كان أفصح منه لسانا، قال تعالى نقلا عنه: "قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي. وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي"[8]. " فإذا علم أن هذا التبيين كان لقوم يتصاولون بالبيان، ويتقارعون بالفصاحة، كالعرب، فلا بد أن يكون الذي يتولى هدايتهم من الظلمات إلى النور بالبرهان والمنطق أشدهم عارضة، وأقواهم حجة، ولابد أن يكون الذي اختاره لهذه الهداية قد مكّن له في منبته وفي نفسه من عوامل السداد والتوفيق ما يحرز به الفلج الحاسم في ملأ لدّ أبيناء"[9].

فهم أرباب البيان، وعمالقة الفصاحة، واشتهروا باللدد في الخصومة، وبفخرهم بالشعر والشعراء، والخطابة والخطباء، وبفنون القول، ولهم فيها صولات وجولات، و" لا تنقطع بهم حجة، ولا يعوزهم منطق بليغ، قد نعتوا الرسول بأوصاف عديدة كيدا ومخاصمة، ولكنهم لم يستطيعوا أن

ينعتوه بما ينال من فصاحته لأنهم يعلمون أن مثل هذه الفرية زائفة باطلة لدى دهماء الناس قبل خاصتهم من ذوي البصر بالأساليب الجملية"[٨] فجعل الله نبيه صلى الله عليه وسلم على درجة عالية من البلاغة والبيان تفوق ما هم عليه في هذا الشأن، لتكون العقول عنه أفهم، والحجة به أقوى، والأعناق إليه أميل، والنفوس له أخضع.

تعد أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم في قمة النصوص الأدبية المروية عن عهد النبوة، بعد القرآن الكريم، فصاحة وبلاغة، لما عرف به الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه كان أفصح العرب، وأن فصاحته كانت توفيقا من الله وتوقيفا؛ لأنه سبحانه ابتعثه للعرب، وهم قوم تنقاد أرواحهم لألسنتهم، فيقادون من ألسنتهم، وقد الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه بالفصاحة، فقال: "أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش"، وكثيرا ما أدهش أصحابه بفصاحته، فيروى أن أبا بكر قال له يوما[٩]:

"لقد طفت في العرب وسمعت فصحائهم، فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك (أي علمك)؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسن تأديبي".

لذا جاءت أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ممثلة للبلاغة الإنسانية في قمة بيانها، ليست وليدة الصنعة والمعاناة، وإن بدت في إتقانها وعلو طبقتها كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهي على سهولتها ممنوعة، بعيدة المنال.

نعم، هي: "ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي، ولكنها جاءت من سبيله، ... محكمة الفصول ... محذوفة الفضول ... إن خرجت في الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح، وإن راعت بالحكمة صورة بشرية من الروح، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض، أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء ...، وهما بعد ذلك كأنهما سواء في سهولة الإطماع، وصعوبة الامتناع"[١٠]، وكما يقول الجاحظ عن بلاغته ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "... فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام"[١١].

فلا غرابة إذاً أن تنافس الفصحاء في وصف ما امتاز به كلامه صلى الله عليه وسلم من جمال، وأن يوليه البلغاء أهمية بالغة، للكشف عن خصائص البلاغة النبوية والمعالم الجمالية في لفظه ومعناه وصوره

وتراكيبه. و في السطور الآتية نشير إلى جملة من هذه الخصائص، وذلك بقدر ما تتسع له صفحات هذا المقال المختصر.
والذي يهمنا في هذه الدراسة أن نكشف الستار على أهم النواحي البلاغية على ضوء ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم مسندا إليه قوله، متقيدا بحرفيته وصيغته الزمنية.

خصائص البلاغة النبوية

أولا - **الإيجاز:**

وهو فى اللغة التقصير. يقال: أوجزت الكلام قصرته، أما فى اصطلاح البلاغيين فمعناه أن تجتمع المعاني الكثيرة المقصودة من الكلام في الألفاظ القليلة، التي تقل عن العدد المتعارف عليه بين الناس في عادات خطابهم[٥٥].

وهذه الخصيصة من أبرز خصائص البيان النبوى، وقد أشـار إليها صلى الله عليه وسلم بقـوله: **" أوتيت جوامع الكلم "**، وجوامع الكلم كما قال النووى: " القرآن جمع الله تعالى فى الألفاظ اليسيرة منه المعانى الكثيرة، وكلامه صلى الله عليه وسلم كان بالجوامع، قليل اللـفظ، كثير المعنى "[٥٦] وقال الطـيبى: " وقيل: إيجاز الكلام فى إشباع من المعنى، فالكلمة القليلة الحروف منها تتضمن كثيراً من المعانى وأنواعاً من الكلام "[٥٧]، ويقول ابن الأثير: " والمراد بذلك أنه صلى الله عليه وسلم أوتى الكلم الجوامع للمعانى[٥٨].

ولقد مثل ابن الأثير لإيجاز التقدير وإيجاز القصر بأمثلة من الحديث النبوى، ومما مثل به للأول: قوله صلى الله عليه وسلم: "الحلال بين، والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات"[٥٩]، وحديث " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى..." [٦٠] ومثل للثانى بحديث " الخراج بالضمان"[٦١]

ومن الأحاديث الموجزة التي تطبق عليها هذه القاعدة، أنه صلى الله عليه وسلم رأى امرأة تبكى عند قبر فقال: " اتق الله واصبرى " قالت: إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى، ولم تعرفه. فقيل لها: إنه النبى صلى الله عليه وسلم. فأتت باب النبى صلى الله عليه وسلم فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: "إنما الصـبر عند الصدمة الأولى"[٦٢].

وما أروع عبارته الأخيرة صلى الله عليه وسلم ، لقد جمعت مع الإيجاز الحكمة، ولقد تألفت من خمس كلمات، ولكنها حوت الكثير من المعانى، فالنبى صلى الله عليه وسلم بهذه العبارة الموجزة يريد أن يقول لهذه المرأة الثكلى التى فقدت صبيها وقد آلمها المصاب، وأجزعتها الفجيعة أن

الصبر الحقيقى عند شدة المصيبة وقوتها، وأن صاحبه يحمد ويثاب عليه فى هذه اللحظة لأن النفس إنما يشتد جزعها أو يكون ثباتها عند أول نزول البلاء. فمن الناس من يجزع ويفوت على نفسه فضيلة الصبر الذى جاء فى الحديث[٥٤]، والحديث فضلاً عن ذلك حكمة من الحكم تدور على ألسنة الناس اليوم إذا أصيب أحدهم بمصيبة شديدة صبره الناس بهذا الحديث. وهكذا يظل البيان النبوى بإيجازه بياناً مفتوحاً مع الزمان.

ثانيا: الرقة والجزالة

وهى القوة والكثرة، فالحطب الجزل: هو القوى العود الذى تصبر النار بعض الوقت على التهامه ثم قيل – على سبيل المجاز – رجل جزل إذا كان ذا عقل قوى، ففى الجزالة قوة تقابل الرقة، و الجزالة فى الرأى جودته، وفى الكلام: قوته وشدته. واللفظ الجزل: خلاف الركيك، والجزل: العظيم. فالمعنى اللغوى للجزالة يدور حول قوة اللفظ وإحكامه وشدته وعظمته[٥٥].

يقول ابن الأثير : " الألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحرب، وفى قوارع التهديد، والتخويف، وأشباه ذلك. وأما الرقيق منها فإنه يستعمل فى وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفى استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك..."[٥٦].

فالجزالة جزالة موضوع لا جزالة كلمة أو بيت أو آية...، وكذلك الرقة لا تكون فى لفظة منقطعة من سياقها كما نعرف أن التماسك الآسر لا يكون بقوة الألفاظ وحدها، بل بما تعبر عنه من مواقف قوية تتطلب التلاؤم بين اللفظ والمعنى، أو بين الشكل والمضمون كما يقال فى هذه الأيام...، فالجزالة ليست غرابة اللفظ بحال[٥٧].

و من الأمثلة التطبيقية على هذه الخصيصة قول الرسول الله صلى الله عليه وسلم: " من ظلم من الأرض شيئاً طوقه من سبع أرضين "[٥٨].

ونلمح هنا الجزالة و القوة والإحكام فى هذا الحديث، والجزالة هنا جزالة موضوع كما سبق، وهى هنا للتحذير من الظلم، وما أخطر الظلم وأشد وقعه فى حياة الناس، ولقد شاركت الألفاظ فى جزالة الموضوع، فالفعل " طوقه " فيه جزالة وقوة، ومعناه: أنه يكلف نقل ما ظلم منها فى القيامة إلى المحشر ويكون كالطوق فى عنقه لا أنه طوق على الحقيقة.

ومن أمثلة الجزالة أيضا: قوله صلى الله عليه وسلم: " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم،

حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم"[٢٥] وهذا الحديث كسابقه فى الجزالة، فقوله " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة " فيه من القوة والفخامة ما فيه، حيث ذكر" الظلم " صراحة أولاً ثم ذكره ثانياً مسبوقاً بـ " إن " التى تفيد التأكيد، كذلك ذكره للظلمات بعد ذلك، وهذا التكرارللفظة الظلم، وجمع الظلمات ألقى على الكلام فخامة وقوة وجزالة.
أما الرقة فمعناه: اللطف والسهولة، ورقة الحاشية، ونعومة الملمس. وهذه الرقة تكون فى الحديث عن الرحمة والمغفرة، والجنة ونعيمها، وفى الملاطفات فى خطاب الأنبياء، وخطاب المنيبين والتائبين من العباد، وما جرى هذا المجرى.
وأمثلة الرقة تظهر كثيرا في أحاديث الدعاء والابتهال إلى الله، والدعاء عبادة وخشوع، وطلب وذل وإنكسار بين يدى الله فتأتى ألفاظ الدعاء برقتها لتنسجم مع حال هذا الداعى الذى يطلب من الله.
ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " اللهم اجعل فى قلبى نوراً، وفى بصرى نوراً، وفى سمعى نوراً، وعن يمينى نوراً، وعن يسارى نوراً، وفوقى نوراً، وتحتى نوراً، وأمامى نوراً، وخلفى نوراً، واجعل لى نوراً"[٢٨] ونلمح هنا الرقة والتدفق فى ألفاظ هذا الحديث كما نلمح التناغم والهدوء يكتنف هذه الألفاظ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم دعا بهذا الدعاء فى صلاة الليل، وألفاظ الحديث برقتها تناسب جوّ الليل الهادئ الوديع الساكن، وهنا نرى الألفاظ والموضوع وما يحيط بهما من الزمن تتجاوب كلها فيما بينها، وتتدفق فى رقة وهدوء[٢٩].

ثالثا البعد عن التكلف والتصنع

نفى الله عز وجل التكلف حين قال على لسانه: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنْ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)[٣٠]؛ "لأن التكلف فى كل أمر يحبط تأثيره ويلقى على صاحبه ظلالاً من الكراهية والاستثقال، وأظهر ما يكون التكلف فى قول يقال؛ لأن السامع لا يفتح صدره لمن يلمس فيه هذا الخلق الثقيل، ومهما كان قوله صحيحاً فإن مسحة التكلف تلقى عليه ظلالا بغيضة تجعله أشبه بالقول المخطئ وما هو به؛ لأن الروح التى يصدر عنها لا تظهر صافية مطبوعة، بل تعانى من آصار التكلف والتصنع ما يكاد يعصف بما لديها من السداد والإصابة "[٣١].
والرسول صلى الله عليه وسلم معروف ببعده عن التكلف والتصنع؛ ولذلك كان يتكلم بكلام بين فصل لو عده العاد لأحصاه حرصاً منه صلى الله عليه وسلم على أداء أمانة التبليغ، ورعاية مقتضى حال المخاطبين فاتسم تعبيره بالوضوح والإشراق والبيان والسداد تفيض عن الفطرة السليمة

الصافية، والنفس المجتمعة الهادئة، فلا تلقي وأنت تنتقل في رياض الحديث إلا حوارا نضرا خاليا من التكلف والتصنع ومن كل زخرف مستكره.

وهذه الخصيصة جاءت من حرصه صلى الله عليه وسلم بالمنطق وعنايته على إصلاحه واعتداله، وهذان الأمران لا يتأتى مع التصنع والتكلف؛ ولذلك جاء كلامه عليه الصلاة والسلام خاليا عن الألفاظ المتكلفة والمصتنعة، وإنما كان يتكلم عن روية وسلاسة طبع، وحتى ما جاء في حديثه من السجع[٥٤]، فهو سجع محمود؛ إذ وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولايكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأجله، فالسجع فى البيان النبوى ما أروعه وأبدعه؛ لأنه سجع يأتى لموافقة المعنى بعيداً عن التكلف، و أكثر كلامه صلى الله عليه وسلم يجرى على هذا المنوال [٥٥].

ومن النماذج الواضحة على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " اتقوا الله، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم، تدخلوا جنة ربكم "[٥٦]، وهنا السجع فى أعلى درجات الحسن لقصر عباراته من ناحية، وتنوع فواصله واختلافها فى المعنى من ناحية أخرى.

و نلمح أن السجع القصير الفقرات أوعر مسلكاً، وأن من صفات السجع الحسن أن تختلف فواصله فى المعنى، ولاتتكرر بألفاظ أخرى مرادفة لها، وهنا نلمح أيضاً أن السجع مما يناسب المقام؛ لأنه بصدد بيان بعض أصول الإسلام، ويحتاج إلى ترسيخها فى الأذهان، وبهذه الموسيقى اللفظية فى العبارات يتسنى تثبيت المعانى المذكورة فى النفوس حتى يتمكن من فهمها والعمل بها، والسجع برنته مما يساعد على ذلك.

ومن الأحاديث التى كثر فيها السجع أيضا أحاديث الدعاء، والسجع مما يناسب هذا المقام مقام التضرع والابتهال إلى الله عزوجل، وقد تنوعت فواصل السجع فى أحاديث الدعاء ما بين القصيرة والطويلة حسب المقام والغرض، وأحاديث الدعاء المسجعة لها رنة وصدى فى الأذن مما يناسب حال الداعى الخاشع المتضرع، وقد روعى فيها مناسبة الألفاظ لمعانيها.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: " اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم "[٥٧]، وقصر الفواصل هنا مما يناسب الحال و المقام، ويلاحظ أن الفاصلة الأخيرة تخالف

فواصل السجع قبلها، ولقد ختم بها الدعاء، وجاءت بصيغة الأمر ومعناه الدعاء، ويلاحظ أيضاً قصر فواصل السجع واعتدالها، وهذا الضرب أوعر مسلكاً، ولا يتصدى له إلا أرباب الفصاحة والبلاغة[٥٢].

رابعا – التمثيل وضرب الأمثال: معنى التمثيل: كلمة " مثل " من المثول: وهو الانتصاب، والممثل: المصور على مثال غيره. يقال: مثل الشئ إذا انتصب وتصور، والتمثال: المصور، وقالوا: الماثل من الأضداد يكون للمنتصب واللاطئ بالأرض[٥٥].

والمثل: هو المجاز المركب، والاستعارة التمثيلية الشائعة فى الاستعمال، فلا تسمى الاستعارة المركبة أو مطلقاً، ولا التشبيه مطلقاً، ولا معنى اللفظ الحقيقى مثلاً عندهم على ما قرره شراح أصول البلاغة أمثال التلخيص والمفتاح، وكافة أهل المعانى، واتفقت كلمة الشروح عليه هنا أيضاً، وهذا إذا سلم وأخذ على ظاهره لا غبار عليه.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم بمهامه التبليغ يعرف دور المثل ومكانته عند قومه، فلا غرابة إذاً أن يحظى المثل باهتمامه صلى الله عليه وسلم ما دام وسيلة من الوسائل التى تعينه على أداء هذه المهمة.

"ولما كان الهدف من ضرب الأمثال هو إدراك المعانى الذهنية المجردة وتقريبها من العقل، وتكوين صورة لهذا المعنى فى المخيلة؛ ليكون التأثير بتلك الصورة أشد وأقوى من الأفكار المجردة، كثر الاعتماد على هذا الأسلوب فى القرآن. قال تعالى: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[٥٨]".

نعم " المتفكر فى الأمثال النبوية يجد صفة التنويع ظاهرة فيها، فقد نوّع رسول فى الممثل، وضارب المثل نفسه، فتارة يسند ضرب المثل إلى نفسه كما فى حديث " إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه، وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: " فأنا اللبنة، وأنا خاتم المرسلين "[٥٩] الذى مثل فيه لحاله مع الانبياء قبله، وتارة يسند ضرب المثل للملائكة كما فى حديث قصة الملائكة الذين جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو نائم، والشاهد فيه أنهم قالوا: " إن لصاحبكم هذا مثلاً، فاضربوا له مثلاً"[٦٠] فضربوا مثلاً لحاله مع أمته"[٦١].

وكذلك ضرب صلى الله عليه وسلم المثل فى موضوعات متعددة، ولأغراض متعددة من أمور العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والعلم،

والزهد، والدعوة، وفضائل الأعمال، والترغيب والترهيب، وغير ذلك. ونوع كذلك فى أسلوب العرض وطريقة ضرب المثل.
و من أروع ما مثله صلى الله عليه وسلم لأثر الصلاة فى محو الذنوب والخطايا، حيث قال: " أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً، هل يبقى من درنه شئ؟ قالوا: لا يبقى من درنه شئ. قال: " فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا "[٥٦].
ما أحسن هذا التمثيل! وما أقربه من الواقع، وهو يتحدث عن أثر الصلاة فى محو الذنوب، وأراد أن يوضح ما تتركه الصلاة من أثر فى عمل الإنسان، وما ينتج عنها من مغفرة، فأخذ صورة من الواقع، وهى صورة النهر الجارى أمام بيت المرء وهو يغتسل فى هذا النهر خمس مرات كل يوم، إن التصوير هنا جاء بماء النهر فى عذوبته، وجريانه، وصفائه، فهو ماء متجدد يغتسل فيه المرء، فإذا اغتسل الإنسان بهذا الماء العذب الصافى المتجدد، لا يبقى في بدنه شيء من الأوساخ ، ومن هنا ذكر ماء النهر دون البحر نظراً لعذوبته ونقائه، فالماء المالح إذ اغتسل به الإنسان قد يترك فى جسمه آثاراً بسبب ملوحته، أما هذا الماء العذب فكله منافع، فهو للشرب والاغتسال وسائر وجوه الانتفاع. وكذلك الصلوات الخمس تمحو الخطايا والذنوب، والربط هنا ما بين الصورة الحسية، وهى الاغتسال للطهارة والنظافة، والصورة المعنوية، وهى الطهارة من الذنوب والآثام الحاصلة بالصلاة مما أكسب التمثيل جمالاً وواقعية وبهاءً[٥٦].

خامساـ دقة الوصف فى البيان: الوصف: من وصف الشئ له وعليه وصفاً وصفة: حلاه، والهاء عوض من الواو، وقيل: الوصف المصدر والصفة: الحلية، والوصف: ما ينعت به الشئ من صفات ونعوت[٥٨].
والوصف عند البلاغيين: " هو ذكر الشئ كما فيه من الأحوال والهيئات. ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم من أتى فى شعره بأكثر المعانى التى الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه، وأولاها حتى يحكيه بشعره، ويمثله للحس بنعته "[٥٨].
والوصف الدقيق النابع من البصيرة النافذة، وحسن الإدراك، والتدفق العاطفى أبلغ من التشبيه أو الاستعارة أو الكناية، أو الوسائل المألوفة فى التصوير، إنه ينقل لك أمام عينيك المشهد حتى تكاد تحس به بحواسك، وتلمسه بيديك[٥٩].

و مما يحسن الإشارة إليه أن الوصف فى الحديث النبوى وصف متنوع، " فلقد استخدمه النبى صلى الله عليه وسلم لإرشاد الناس، وتعليمهم ما يقربهم من ربهم، ولبيان حقائق الدين، كما استخدمه لتحذيرهم وتخوفيهم مما يبعدهم عن جنابه ورحمته. فنجد فى البيان النبوى أحاديث فى وصف الجنة والنار، ووصف المسلم، ووصف الخوارج، ووصف الشيطان وفعله بابن آدم إلى غير ذلك من الأحاديث التى تتصل بالعقائد، والغيبيات، والعبادات، والأخلاق"[٨٥].

فمن روائع الوصف الدقيق في قول النبي صلى الله عليه وسلم قوله: " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثونى ما هى؟ " فوقع الناس فى شجر البوادى، قال عبد الله بن عمر: ووقع فى نفسى أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هى يا رسول الله؟ قال: " هى النخلة "[٨٨].

و هنا جاء الوصف معتمداً على التشبيه حيث شبهت النخلة بالمسلم، وجاء الوصف أولاً للنخلة لقوله صلى الله عليه وسلم: " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها "، وهذا الوصف من أبرز صفات النخلة التى امتازت به من سائر الأشجار، وهو عدم سقوط ورقها، وليست هذه كل صفات النخلة [٨٩].

ويبدو لنا فى ذلك ملحظ بلاغي، فالنبى صلى الله عليه وسلم بذكره لهذا الوصف من أوصاف النخلة يريد أن يبين أن النخلة لا ينقطع عطاؤها وخيرها بحال من الأحوال، فورقها فيها سواء أخرج منها الثمر أم لم يخرج، وفي هذا إشارة إلى أن الخير مستمر فى المسلم فى كل حال؛ لأن نفسه مجبولة على حب الخير والعطاء، لا يفارقه حب الخير، ولا يفارق هو فعل الطاعات، فلا ينفصل أحدهما عن الآخر، كما أن النخلة لا يسقط ورقها بحال من الأحوال، ولهذا عقب النبى صلى الله عليه وسلم بعد هذا الوصف للنخلة بتمثيلها بالمسلم، وكأنه يلفت الأنظار بداية إلى أن هذه الخصيصة فى وصف النخلة هى أبرز الصفات التى تشابه فيها المسلم، فهذا الترتيب بين الوصف أولاً والتشبيه ثانياً أمر مقصود إليه فى البيان النبوي. فالنبى صلى الله عليه وسلم ذكر هذه الصفة وحدها من صفات النخلة مع أن لها صفات أخرى عديدة من كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام، فإنه من حيث يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس، وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة. [٩٠]

و هذا غيض من فيض، فإن أحسنت فى بيان ما قصدت فمن الله، وإن كانت الأخرى فمن نفسى، وأسأل الله أن يجنبنا الزلل، إنه نعم المولى، ونعم النصير، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام

على صاحب خاتم الرسالات، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم،٢٩: ٢٧.
٢. القرآن الكريم،١٦: 88.
٣. القرآن الكريم، ٣: 1٦8.
4. القرآن الكريم، ٢٠: ٢٥- ٣٢.
٥. هذه العبارة للبيومي: محمد رجب، البيان النبوي (مصر: دار الوفاء - ١4٠٩هـ ١٩٨٩م)، ص ٥٣.
٦. الصباغ: د. محمد بن لطفي، التصوير الفني في الحديث النبوي (بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى: ١4٠٦هـ ١٩٨٦م)، ص ٢١.
٧. الرافعي: مصطفى صادق بن عبد الرزاق، تاريخ آداب العرب(القاهرة: دار الكتاب العربي، د.ت)؛ ص ٢/٣٠٩.
٨. الرافعي: مصطفى صادق بن عبد الرزاق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (المنصورة - مصر : مكتبة الإيمان- ١٩٩٩م)؛ ص ٣١٢.
٩. الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين(بيروت: دار الجيل - ١٩٩٠ تحقيق: عبد السلام هارون)؛ ص ١/٢٠
١٠. الخفاجي: عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان ، سر البلاغة (بيروت : دار الكتب العلمية الطبعة الأولى 1982م)؛ ص 211
١١. النووي: محي الدين شرف، شرح صحيح مسلم (بيروت: دار إحياء التراث العربي د.ت)، ٥/٥
١٢. الطيبي: الحسين بن عبد الله، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح والمسمى الكاشف عن حقائق السنن (بيروت: دار الكتب العلمية- ١٤٢٠م)؛ ١٠/٣٠٥.
١٣. ابن الأثير: ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر- 1420هـ)؛ ص ٣٠.
١4. أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب الحلال بين والحرام بين ...، ومسلم في كتاب المساقات، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.
١٥. أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي.
١٦. أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث عائشة. ومعناه أن الرجل إذا اشترى عبداً فاستغله ثم وجد به عيباً دلسه عليه البائع فله أن يرده ويسترجع الثمن جميعه، ولو مات العبد أو أبق أو سرقه سارق كان في مال المشتري وضمانه عليه وإذا كان ضمانه عليه فخراجه له أي له ما تحصل من أجرة عمله. وينظر لشرح الحديث وتخريجه وطرقه: ابن الأثير: مجد الدين المبارك محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد، جامع الأصول في أحاديث الرسول (بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٩٦٩م)؛ ص ٢/ ٣٢ – ٣٦
١٧. أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.

٢٤. الحمزاوي: الدكتور محمد أبو العلاء أبو العلاء , الخصائص البلاغية للبيان النبوي (الرياض: مكتبة الرشد - ٢٠٠٩م)، ص , ٩٥.
٢٥. ابن منظور: جمال الدين محمد، لسان العرب (بيروت: دار صادر- ١٩٩٨م)؛ مادة "جزل " ١١/٥٠١.
٢٦. ابن الأثير: ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المرجع السابق؛ ص ١٩٢.
٢٧. البيومي: محمد رجب، البيان القرآني (القاهرة: نشر مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٩٥م)؛ ٥٤ بتصرف.
٢٨. أخرجه البخارى من حديث سعيد بن زيد، في كتاب المظالم، باب: من ظلم شيئا من الأرض.
٢٩. أخرجه مسلم من حديث جابر، كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم.
٣٠. أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: الدعاء إذا انتبه من الليل.
٣١. الحمزاوي: الدكتور محمد أبو العلاء أبو العلاء، الخصائص البلاغية للبيان النبوي، مرجع سابق، ص ٩٥، ٢٠٠٨.
٣٢. القرآن الكريم:سورة ص: ٢٨
٣٣. البيومي: محمد رجب، البيان النبوى،مرجع سابق، ص , ٢٨٩.
٣٤. السجع: مأخوذ من سجع الحمام: وهو تغريده. وعرفه الخطيب: " هو تواطؤ الفاصلتين على حرف واحد" وهذا معنى قول السكاكى: " الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر " هناك تعريفات أخرى للسجع كلها تدور حول معنى واحد، و هو أن تتفق الكلمتان الأخيرتان من الفقرتين في حرف واحد في آخر هما.(لمزيد من التفصيل يراجع: الحمزاوي: الدكتور محمد أبو العلاء أبو العلاء، الخصائص البلاغية للبيان النبوي، مرجع سابق ص: ٢٠٠٨).
٣٥. عصام البشير، أصول البلاغة النبوية (ملتقى أهل الحديث؛ www.ahlalhdeeth.com)
٣٦. أخرجه الترمذى في أبواب السفر، باب: منه. وقال الترمذى: حسن صحيح.
٣٧. أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، وباب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو.
٣٨. الحمزاوي الدكتور محمد أبو العلاء أبو العلاء،الخصائص البلاغية للبيان النبوي،مرجع سابق ص: ٢٠٠٨.
٣٩. الراغب الإصفهاني، المفردات في غريب القرآن (دمشق: دار القلم - ١٤٢٥ هـ)؛ ص ٧٤٨.
٤٠. القرآن الكريم،سورة الزمر : ٢٩
٤١. متفق عليه من حديث أبى هريرة. انظر الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح (بيروت:دار الكتب العلمية–٢٠٠٥م)؛ ٣/١٥٠٧.
٤٢. أخرجه البخارى من حديث جابر . مشكاة المصابيح ٢/١٤٨٢.
٤٣. مقدمة حول الأمثال النبوية، (إسلام ويب : www.islamweb.net)؛ ومنتديات المنشاوي للدراسات والبحوث، (www.minshawi.com).
٤٤. متفق عليه من حديث أبى هريرة. وانظره فى مشكاة المصابيح ٢/١٢٩٢.
٤٥. الحمزاوي: الدكتور محمد أبو العلاء أبو العلاء , الخصائص البلاغية للبيان النبوي، ص: ١١٦- ١١٩.
٤٦. ابن منظور: جمال الدين محمد بلسان العرب، مادة " وصف " ص: ٩/٣٧٥.
٤٧. أبو الفرج: قدامة بن جعفر، نقد الشعر (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة – ١٩٧٨م)؛ ص ١٧٥.

٨٤. الصباغ: الدكتور/ محمد لطفى، التصوير الفنى فى الحديث النبوي الشريف (بيروت: المكتب الإسلامي - ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)؛ ص ٤٥.
٨٥. الحمزاوي: الدكتور محمد أبو العلاء أبو العلاء، الخصائص البلاغية للبيان النبوي، ص: ٢٥١.
٨٦. أخرجه البخارى، كتاب العلم، باب قول المحدث حدثنا وأخبرنا، و مسلم، باب مثل المؤمن مثل النخلة.
٨٧. الحمزاوي: الدكتور محمد أبو العلاء أبو العلاء، الخصائص البلاغية للبيان النبوي، ص: ٢٥١.
٨٨. المرج السابق: ص: ٢٥١- ٢٥٤ بتصرف.